قصة قصيرة

بريق

مصطفى الكيلاني

«تَمَدَّدي . . ! سَيأتي الصّباح، فَفِي الشرقِ أمطار حبيسةٌ أَلْمَحَ إليها فيلسوفٌ آخرِ عهدٍ لي بالقراءة في كتابٍ لم يُتِمَّهُ قبل هلاكه ثمّ تلاشت الأوراق وتناثر المِدَادُ بين لبّات الخيول وَقَرْقَعَاتِ السياط وشهيقِ الأطفال يجوبون غابات السنديان في مَرَابع الشفق . . » اسْتَرْخَتْ كأنّها لا تعلم بما سيأتي في العام القادم . . أَرْخَتْ عِنَانَ حُبّها للزوارقِ المَهجورة وحفيفِ الأجنحة تُلَامِس جبينها بوحشة الفراق . .

«لِن أترك فيلسوفي يهجر عقله البدائيّ» كذلك قالت، ثمّ أَغْمَضتْ عينيْها لتنعم في خلوتها بنيران الكهوف وقمم الجبال وتستعيد بحنين العاشقة خيوط المطر وعويل الرّيح . . .

المُدَّة بَيْني وإطْلَالتها بريق خاطف . . ألاحق وجهها، وكلّما ترصّدتُ حُلْمَها انفلتت منيّ وَرَأيْتُني مجنوناً من غير أن أفقد الصواب . . أتوهّم الخروج من دائرة الظلّ وأحاول اقتلاعها من مغارسها فأرتمي في صبري مُنْهَكاً وَيُعَاودني الوهم . .

قلتُ: «تمدّدي عَلَّني أمسك بذيل لحافك فأطير معك خارج دوّامة الزمن وأقتل فيّ عبوديّتي للكلمة والعقل . . » لم تتلفّظ بكلمة، وَوَجَدْتُني بَدَناً أعمى يضيع في صحراء هذا الليل . . اللحظة بَيْنَنَا زَمَنُ الكَوْن لا تَسَعُهُ الحركة، أهُمُّ باقتناصها فَتُوهِمني بالتوقُّف كأنّها السرعة تنفلت من عقالها وأرتمي في آخر المدى بين لغتي والصمت . . تفرّ مِنّي فأعود إلى هزيمتي الأولى وَأُغيّر الوُجْهة لعلّ الصّدى ينثر تراتيل معابد أقفرت ثمّ ابتلعَها تاريخ الغَزَوات وأهمس كأنّها القريبة منّي جَسَداً: تمددي حتّى يَطْلَعَ الصباح فأتبيّن ارتعاشة الدليل في شفتيْك ثمّ أتفتّح كلمة تسع الكون وتشقّ جلبابها في حضرة لذّتي الحمقاء لأقتطف من النهدين ظلال التفّاح وأمرّغ بصري بالتشهّي . . ».

وأعود إلى خيبتي قتيلَ الظلّ لا الرّوحُ تسمعني ولا الاسمُ يَحْوِيني . . أَسَرِّحُ ناظريّ في جلبابها الراقص هناك بين البحر والتّلّ، وَيَبْهَرني بياض القبور ومنازل الأجداد والنوافذ المعلّقة والصومعة وأشجار الصفصاف كأنّها خيوط الظلّ تطرّز جسد البياض . . . أصِفُ المكان والأشياء كي أنقل لغتي من صَمْتِها الأبديّ إلى ثرثرة العقل وَأدّعي الكلام.

« ـ تَمَدّدي كالقبر لعلَ الموت يفهم قصدي وأخلّص عقولهم من زحمة البخور وصلوات المعابد القديمة» . . سألت فيلسوفي قبل أن يهلك: لِمَاذَا يتوارثون الكذب؟ . . أغمض عَيْنَيْه كأنّه يسترجع ذكرى وأومأ إليّ بأن أَتَمَدَّدَ في ثَلْمَة الخطّ حيث تتوقّف الحركة بين شديد الأقصى والأدنى . . ارتعشت في البدء، ثمّ قذفني جنونُ الحركة إلى جزيرة ساكنة وأبصرتُ الموت فارغ الوجه رقيقَ الخِصْرِ كظلّ إصبع يتمدّد في قاع بركة . . يدعوني إليه لأعودَ إلى ذاكرتي مَخْصيّ الفرح . . أهمس في أذنيْك بحرقة المهزوم: تمدّدي بين لغتي وعجمة الأشياء كبارقة النطفة تمرّ من الهوّة ولا تعلق بالرحم فتضيع . . وأبتسم لعلّ الشفتيْن تجرحان صمت العالم فأنطق دون أن أتكلّم . . . :

ترانيم عشق السماوات البحار أنام، على ضفاف الجُزر تُهدهدني أفراحٌ كاذبة، خيالات مدن أجنّة عيون أعانق تجاويف الأرحام . . أنام . . أنام، ألامس حوضها في تشكُّل الزغب كالشجرة، أمرِّغ جبيني لأبلّل شفتيّ بالنُّسغ وأفتتح عهد الفراغ يُحبل ذاكرتي؛ ترانيم همسات الفجر الشفقيّ، أمخر عُباب المحيط . . ، أتنصّت ذبذبات جواسيسهم، أراني مقيَّد اليدين . . ، أفرغ بين أقمارهم الصناعيّة والشاشات؛ أنام دون أن أنام . . .

«تمدّدي يا لذّتي الحمقاء، فالكلمة حصان يطير ولا يطير . أرمقه بين حُمَّى النزيف والنزيف جنّيَّة تغتسل بظلال غيبوبتي» . وأملأ الكأس . . أشرب . . أشرب، ثمَّ أنام ولا أنام . . . وفي آخر الليل أتوهَّم شروقاً يقتحم خلوتي، وأفرّ إلى الكلمة كي أهمّ بالغوص في حوضها، فيرتعش الماء ويتفاقم عجزي بين الليونة والوسادة . . أتجمَّع . . أرتمي . يهتزّ السرير ويطير الحمام . . أضحك وأصابع يديّ تلامس ظلال دم الفراخ والبَيْض المهشَّم والزغب وخيوط ثوب حريريّ أحلم به دون أن أراه . .

« ـ تمدّدي . . ! أنا هنا أهمُّ بقتلك وأخاف عليك من ذكورة هذا السكّين، يُهدِّدني فرارك بالتّيه . . » ويرتعش الماء والحوض والشجرة . . أنام ولا أنام دون أن أتكلّم . . .

(تونس)